

وقف مع الحُبوبي النجفي

الكرامة حادثة الحزبي

لا تَخَلْ وَيَكْ وَمَنْ يَسْمَعُ يَخَلْ
أَنْنِي بِالرَّاحِ مَشْغُوفُ الْفَوَادِ
أَوْ بِمَهْضُومِ الْحَشَا سَاهِي الْمَقْلِ
أَخْجَلْتُ قَامَتَهُ السُّمَّرَ الصَّعَادِ

إِنَّ لِي مِنْ شَرَفِي بُرْدًا ضَفَا هُوَ مِنْ دُونِ الْهَوَى مَرْتَهَنِي
غَيْرَ أَنِّي رَمْتُ نَهْجَ الظَّرْفَا عَفَّةَ النَّفْسِ وَفَسَقَ الْأَلْسَنِ
إِذْ كَانَ الْحُبُوبِي مِنَ الظَّرْفَاءِ يَنْتَهَجُ نَهْجَهُمْ وَيَقْتَنِي أَثَرَهُمْ ! وَلَعَلَّكَ سَائِلُ
إِيَّايَ وَمَا نَهْجُ الظَّرْفَاءِ هَذَا ؟ فَيَسْرِعُ الْحُبُوبِي لِيُرِدَّ عَلَيْكَ :

عَفَّةَ النَّفْسِ وَفَسَقَ الْأَلْسَنِ . . . (١)

ولعلك تلاحظ من التناقض بين النفس العفة واللسان الفاسق فتساءل منكراً في

(١) في ديوان الحُبوبي بعض معاني الظرفاء من مثل قوله :

قالت تخرج قلت لا حرج مسا في الغرام على امرئ حرج

سِرِّكَ كيف لعمرِكَ يكون الجمع بين هذين ؟ ولا يذهبن بك الظن أن الحبوبي هو أول من جمع بينهما ، فلعلك تذكر معي قول ذلك العراقي الظريف الذي تقدم الحبوبي بقرون . . . اقول لعلك ذاكر معي قول العباس بن الاحنف :

أناذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لايضمرالسوء إن طال الجلوس به عَفَ الضمير ولكن فاسق النظر (١)
وإن شئت أن تحيط بمعنى الظرف والظرفاء فلا عليك إلا أن تقرأ الوشاء في موشاه لتقف على هذه الطبقة المترفة من الناس كيف كانت تحيا في بغداد واسط القرن الثاني للهجرة ، وديوان الحبوبي من الفه الى يائه شاهد عدل على أن صاحبه شاعر غزل من الطراز الرفيع وأن هذا الغزل يصدر عن احساس عميق وتأثر حقيقي بالجمال . . .

حتام ياقلب وراء المـلاح تصفق من وجدك راحاً براح
كم راعك الوجد وكم جثتني من مرهف الاجفان تشكو الجراح ! (٢)
وموضوع الغزل على ماهو بيّن يحتل الصدارة في ديوان الرجل وأنه من النفاسة بحيث يجعل منه أغزل شاعر عراقي منذ أن نهض الشعر في القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة . . . ولعلنا لانبعد عن الصواب أن لو قلنا لك اننا لم نقرأ لسواه بين شعرائنا ممن طرق هذا الباب شعراً يوازي شعره أو يقرب منه من حيث الوزن او الكم . . . فالغزل لدى اغلب معاصريه غرض تقليدي تمهيدي لاروح

(١) انظر ديوان العباس بن الاحنف طبعتنا المحققة (دار الكتب ١٩٥٣) . ولك ان تعلم أن بين بعض معاني الشاعرين التقاء وتقارباً يقول الحبوبي :

تزيد حسناً اذا ما زدتها نظراً
ويقول العباس :

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظراً
(٢) ديوان الحبوبي ٢٦٦ .

فيه ولا حياة أو هو مادي حسي وربما ماجن نواسي (١) وربما قرأته فما التفت
إليه أو ربما وقفت عنده فانكرته أو أثار في نفسك النفور أو الاشتزاز .

ولك أن تسألني من بعد ما خصائص هذا الشعر الذي جعل من شاعره عندنا
أغزل شاعر عراقي في هذه الفترة من الزمان ؟

إن غزل الحبوبي هذا بارع رائع بالغ حدّه في البراعة والروعة يصدر عن عاطفة
حقيقية وحس رهيف وتأثر عميق بالجمال وفهم لأسراره والحبوبي على ما
يبدو لنا شاعر خلق بطبعه للهيام بالجمال وفطر على عبادة الحسن وهو قطعاً صنو
الشريف الرضي في هذا المجال ولئن كان الشريف عندنا أغزل شاعر عربي على
الاطلاق فليس بكثير من ثم أن يكون خلفه أغزل شاعر عربي عراقي منذ أن
نهض الشعر العراقي في القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة

والغريب أن الأسباب التي اتفقت من قبل للشريف تكاد تكون في جوهرها
عين الأسباب التي تهيأت للحبوبي من بعد ولا عجب فالزمن يقفو الزمن
والتأريخ يعيد نفسه

يقول استاذنا المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير في معرض الموازنة بين
الرجلين :

« فكلاهما شاعر فحل وكلاهما طريف الغزل عفيفه الى حد بعيد وكلاهما
مترفع عن التكسب بالشعر ترفعاً تاماً وكلاهما صاحب فقه وصلاح وورع وكلاهما
موفور الحظ من الجاه والمال وكلاهما رجل عمل وكفاح ايضاً » (٢)

والغريب أن هذا الشاعر الغنائي الرائق المعجب لم يلتفت إليه النقاد كثيراً ولم

(١) لعل سائر شعر الاخرس الذي يصدر به مدائحه تقليدي أو نواسي .

(٢) انظر نهضة العراق الادبية .

يولوا شعره بعض ما يستحق من عناية ونقد ولولا أن استاذنا الدكتور البصير خصّه بفصل في كتابه الرائد : نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر لحاز لنا ان نقول ان شعر الجبوبي على روعته ونفاسته بقي مهملاً . . . فليس لديوان الجبوبي حتى هذه اللحظة طبعة علمية تجدر بمكانه وفضله .

ويبدو لنا من حصيلة شعر الرجل في موضوع الغزل ان ملهمته امرأة حقيقية ليست من صنع الوهم والخيال . . . فالشاعر يفصل لنا معالمها الحسية ويرسمها لنا رسماً واضحاً دقيقاً كأننا منه امام ريشة مصور صناع يروغنا من لوحاته جمال الألوان وتجسيد الملامح واشاعة الحياة في كل جزء من اجزائها . . . والصورة عينها هذه تتكرر في كل لوحة . . . ففتاة الجبوبي وحفاء الشعر مسيلة الجدائل بيضاء اللون ساحرة العينين زجاء الحاجيين حواء الشفتين وهي الى ذلك مرهفة القد (١) رقيقة الحصر ثقيلة العجز على نحو ماتتسم به سائر عرائس الشعر وهي فيما يبدو لنا كرخية المقام لأن الكرخ أبدأ على لسان الشاعر على أنه يقول لنا في أحيان أخرى ان صاحبه نجدية حجازية . . . ومن يدري ! فلعل للشاعر ملهتين احدهما بغدادية كرخية والأخرى نجدية حجازية لاسيما ونحن نعلم ان الشاعر امضى جانباً من عمره بالحجاز .

(١) لعل هذه الصورة عينها مكررة في كل شعره الغزلي :

ما أحيلاه مائساً يتثنى	بشهب من الصبا وبرود
وأحلى سود الفدائر تسمى	كالافاعي من فوق بيض الحدود
هالة الحسن من سناه استنارت	فاستدارت بفهب من جمود

ديوان الجبوبي ٢٨٩

في بدور اشرقت بين الحدوج	تخذت من فاحم الجعد بروج
--------------------------	-------------------------

ديوان الجبوبي ٢٢

ماحيلتي والكرخ دار له ديوان ٢٩٦

ذكرني بالكرخ عهد مرّبي ديوان ٢٩٧

ياراكب الوجناء يطوي بها مهامه البيد قفاراً قفارا
عَرَّجُ على الكرخ وسلم على مَنْ في مُحَيَّاه الوجود استنار

ديوان ٢٦٠

مهاة لها بالقلب مرعى وملعب وإن نزلت من ارض نجد تلاعها

ديوان ١٣٩

والشاعر كالشريف الرضي تخرجه مكانته ان يقال عنه صاحب هوى
وحبائب لذا تراه أبداً يتسر على نفسه ويحاول ان ينكر على قلبه صفة العشق
ولكن تأبى الحقيقة إلا أن تنكشف ويأبى الشعر إلا ان يبوح:

قد تعاهدنا على أن لا أبوح فاملأن لي باسمه كأس الصبح
فهي راح وهي رَوْحٌ وهي روحٌ وهي من داء الضنا برء الضنا
غنني باسم الذي لذ اسمه حَرَبُهُ حربي وسلمي سلمه
جسمُهُ رُوحِي وروحي جسمه أنا من أهوى ومن أهوى أنا
صح هذا في الزمان الأول

وإذ تروحك حرارة العاطفة في شعر الرجل تروحك كذلك فيه لوعة الحرمان
فهو كالشريف تماماً عاشق عَفَّ قضي عليه بالحرمان:

صَبَا لك يا ابنة البكري قلبي فمهلاً لاعدمت هواك مهلاً
جعلت لك القضا أمراً ونهياً فما شئت احكمي جوراً وعدلاً
وقلت فتاك مقتول فقالت اذا ما الحب أفرط كان قتلاً (١)

(١) ابن الفارض يقول:

وعش خالياً فالحب راحتته عنا وأوله سقم وآخره قتل

بروحي من بروحي افتديها وقل لها الفدا مالا وأهلاً
 فيا شهب الثريا سامريني فلو كان السمر سواك ملا
 ولو اني تصدقني الاماني لكنت اليوم اجمع منك شملاً
 مضى زمن الوصال وكان وافى كظل غمامة ثم اضمحلاً
 ويقول :

بلادك نجد والمحبة عراقي فغير التمني لا يكون تلاق
 بلى قد ارى تلك المغاني مثله فاحسب اني زائر وملاق (١)
 ارى الدهر يأتي في تألف شملنا كأني أعاديه فرام شقائي
 والارجح عندنا ان صاحبت هذه عراقية قضت ظروف خاصة عليه بالحرمان
 منها وضرب الفراق بينهما بسهمه . ويعرض لنا الجبوبي في شعره صورة هذا
 الحرمان :

هي الشمس مرآها بعيد وإن يكن تخيلت الايدي تنول شعاعها (٢)
 ونحن اذا تخطينا حرارة العواطف وفرط اللوعة وتجسيد الصورة في هذا الغزل
 النفيس فنحن نلاحظ فيه ايضاً رقة وعذوبة بالغتين هما طابع الجبوبي الخاص
 ولعلهما في هذا الباب اظهر ما يكونان .

(١) اقرأ كذلك قوله :

اصبحت روعي في مثل الحلال

ديوان الجبوبي ٣٠

(٢) يقول العباس بن الاحنف :

هي الشمس مسكنها في السماء

فمز الفؤاد عزاء جميلاً

فلن تستطيع اليها الصعود

ولن تستطيع اليك النزولاً

والمنى نفسه عرضه البحر في ثوب المديح :

دنوت تواضعاً وعلوت قدراً

فشأنك انحدار وارتفاع

كذلك الشمس تبعد ان تسمى

ويدنو الضوء منها والشعاع

ولئن تشابه الشريف والحبوبي في حرارة العواطف وصدق الانفعال وحرقة اللوعة
وبرعا اشد البراعة في نقل كل ذلك بشعر عذب رائق إلا أن فارقاً رئيساً يقوم بين
الشاعرين عائد فيما يبدو لنا الى طبيعة الرجلين هو أن الشريف أمعن بتصوير
المعاني الروحية والحبوبي اعلن بتصوير الحسية منها فالشريف دون ادنى شك خير
من صور نفسية العاشق وخلجاتها في شوقها وحرمانها والحبوبي دون ادنى شك
ابرع من صور معاني المعشوق الحسية ووضح معالم الجمال فيها . . . وإلا فمن
بالله يرقى الى ما ارتقى اليه الحبوبي في وصفه البارع للجمال ؟ (١)

شمس الحميا تجلت في يد الساقى فشح ضوء سناها بين آفاق
تسمى اليك بها خود مرافها أهني واعذب مما في يد الساقى
مسودة الجعد لولا ضوء غرتها لما هدتني اليها نار اشواقى
يهدي اليك بمرآها ومسمها جمال يوسف في الحان اسحق
لاتلبس الوشي الا كى يزان بها كما يزان سواد الكحل بالماق
تزيد حسناً إذا مازدتها نظراً كالروض غبّ رفيف القطر مهراق
رقت محاسنها حتى لو اتخذت عرشاً بناظرني لم تدر آماق
أو قوله :

عرائس الحبوبي
في
روائع النسب

أغيد كالدمية أقرطه قد علق تعليق اوثان
يامن رأى في الارض بدر السما اشرق في صورة انسان

(١) لعل من روائع ما وصف به الحسن قول ابي الطيب المتنبى :
حسان الشني ينقش الوشي مثله إذا من في أجسامهن النواغم
وييمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالماسم

جال فؤادي إن مشى مثلما في خصره جال الوشاحان
 وافى وقد شعّ صباح الدجى فقلت قد شعّ صباحان
 والراح في راحته شعله توجج الليل بنيران
 بالاثميّ اليوم في حبه مهلاً فما شأنكما شاني
 هاموا هيامي فيك لو أنهم قد عرفوا معنك عرفاني
 فانت ترى ان براعة الشاعر في وصف المعاني الحسية عجيبة ولعل هذا هو السرّ
 في تخير هذا الشعر للغناء :

لح كوكباً وامش غصناً والتفت ربما فإن عداك اسمها لم تعدك السيمة
 الحق ان الحبوبي بلغ القمة في هذا الضرب من الشعر والسرّ هو انه ينقل عن
 تجربة ويترجم عن حس بالاضافة الى تكامل الملكة الفنية وتهيؤاسبابها له ويكاد
 يكون سائر ماله في هذا الباب من عيون الشعر ومختاره (١) وربما خطر لك ان
 بعض هذه الصور أو سائرها قديم متداول ولكنني اسرع لاقول لك انها طبيعة عصر
 الشاعر، والشاعر أو الفنان أبداً وليد عصره وترجمانه وإخالك تلحظ معي طابع
 الشاعر الخاص من الروعة والنفاسة والخفة والظرف مما يرتفع بها عن الرخص أو
 الابتذال . .

(١) اقرا قوله :

ملیكة عرشها قلبي به سكنت ودر دمعي حياها فتوجهها
 دیوان ۲۹۸

وقوله :

سفتك میاه الحسن وجتها فسدت عليها تسفك المهج
 رقت محاسنها فلو بلفت روحاً لراحت فيه تمزج
 دیوان ۱۳۹

هذا على ان للمعاني الروحية مكاناً في شعر الرجل قد يقرب من المتصوفة
او بكاد . . .

روحي في روحك ممزوجة وربما تمزج روحان
حتى كأني منك في وحدة لو صحَّ ان يتحد اثنان
اهواهم لم أهو إلا هم هوى تلاشى فيه جثماني
وروحانية الحبوبي هذه تغمر بعض أجواء شعره بالاضافة الى نسيبه ، فزراها
تهيمن على بعض مراثيه نخص بالذكر منها نونيته العصماء في رثاء السيد حيدر الحلي
ولك أن تقرأها لترى أيَّ جو صوفي يغمرك ويشدك الى المتصوفة الاوائل من السلف
الصالح ولترى من ثم نفسك تسبح في جو عرفاني فيه إمتاع وفيه غموض وفيه
أسرار . . الى جلال يهيمن عليك لاتدريه او تدريه . . انه جو ابن عربي
والحلاج وابن الفارض . . يعود من جديد . . .

الى النزوان العيس تلوي أعة وهيئات ليست تملك النزوانا
وليست تشيم البرق من ابرق الحمى بلى قد تشم الشيخ والعاجانا
وليست تنال الري عبا وعلها إذا ظمئت أن تبلغ الرشفانا
والتي يقول فيها :

وقم نجتل النار التي قال خابط من الناس حسبي أن رأيت دخانا
وأن لمعت فاقصد لمشرق ضوئها وام شروق الضوء لا اللمعانا
ولا يختلسك الوهم دون مكانها فشم والا لا تحل مكانا
وقد يرتقي القمة إذ يقول في وصف الدنيا :

بلى نحن في طيف الكرى وتظننا من السكر يقظى لابطيف كرانا
بمعشوقة لم ترع ذمة عاشق وشانة لم نولها الشانانا

نرى وصلها وهو المحال فريضة كما أوجبت هجراننا وجفانا (١)
هذا على أن الأثر القرآني واضح في هذا الشعر كل الوضوح يسمه بسمه
خاصة ترفعه وتميزه فكثيراً ما اقتبس من آي القرآن الكريم ووشى عبارته باللفظ
الموحي والكلام المنزل .

ذي نون حاجبه لو حاؤه اتصلت
في ميم مبسمه لم تعد حاميماً (٢)

.....

ام بذاك القرط ذو اللب افتتن
اذ تجلى وعلى العرش استوى (٣)

.....

ذو قدور ملأت صدر الفضا
راسيات أو جفان كالجوابي (٤)

وانت ترى بعد روعة الأقسام الروحانية ترد في شعر الرجل بين الحين والحين .
قسماً بالراقصات الضمّر

ترامى للمصلى والحجون

وبمن بات ثلاثاً بمنى

ومبيت الركب في روضة خاخ (٥)

(١) من الانصاف ان يذكر ابو الطيب هنا :

وجدنا اذى الدنيا لذيداً كأنما

(٢) و (٣) و (٤) و (٥)

ديوان الحبوي ٩٩ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١١

جنى النحل اضعاف الشقاء الذي نجني

هذا الى ان روح الاسلام تتجلى بهيئة رائعة في معانيه وما قرأت من قبل شاعراً
يقول لحبيبه : (١)

طففت سبعاً حول مغناك كما قمت أقضي صلوات الشوق خمساً
فأنت تقرأ الطواف والصلوات الخمس في معاني العشق وتحس ان هذه الالفاظ
جاءت في مواضعها ووضعت حيث ينبغي لها أن توضع .

الى ذلك قد نلاحظ في بعض شعره من معاني الكلاميين كأن نراه يقول :
وشوقي اليك بقلبي غدا كروح لجسم وجسم لروح
فهاك متون الهوى جملة أبت ان تفصلهن الشروح !
ومعان مثل هذه انسجمت وروح الرجل وازافت اليها روحاً جديدة .

* * *

واثمة الرجل في الشعر — فيما يبدو لنا ثلاثة :

الشريف الرضي والمتنبي وابو عبادة البحتري ، وناهيك بشعر يصدر عن
مثل هذه المصادر . . . ! واثر الرضي والمتنبي باد في معنى شعره وروحه حتى
إنك لتحسه إنما ينقل عنهما نقلاً ومابه إلا اعجاب التلميذ بالاستاذ ينقل عنه وما
يدري ! .

يقول الحبوبي :

وافترّ عن درّ تشنّف مثله فتشابهها والكل راق بوصفه (٢)

(١) نستثني من ذلك العلامة الشاعر محمد رضا الشبيبي الذي يقول :
مسا زال في الصلوات الخمس ذكركم نجوى مصلاي أو تسبيح محرابي
لم ادر ما اتهجى غير انكم في اللحن لحن وفي الإعراب إعرابي
(٢) اقرأ قافية الحبوبي التي اولها :
ما لقلبي تهزه الاشواق خبرينا امكدا العشاق
والثانية التي اولها :

« عليك سلام الله ما غردت ورق » التي يقول فيها .
احبك حباً لست أدري خواطر من الخيل تعرفوني لذكرك ام عشق
فأخرس عن نطقي وتجري محاجري بسري وكاد القلب اذ ذاك ينشق
تجد فيها روحاً من انفاس الشريف

وابو الطيب يقول :

ويبسم عن درّ تقلدن مثله كأنّ التراقي وشحت بالمباسم
والحبوبي يقول :

لقد طال عهد البين بيني وبينهم واشجان قلبي باقيات كما هيا
ويقول الشريف :

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم واعلاق وجدي باقيات كما هيا
ويقول الحبوبي :

جددت بي عيشها المقتبلا وغدت تنجز وعد المخلف
ويقول الشريف :

واقنص للحقب المواضي بل تزود للبواقي
ويقول الحبوبي :

وبمن يجرن رَبطَ الأزر
والشريف يقول :

وأمت الرّيح كالغري تجاذبنا على الكثيب فضول الرّيط واللّم
ونحن لانشك مطلقاً في أنه تخرج في موسيقاه على موسيقار العربية الاول اعني
ابا عبادة الوليد بن عبيد البحتري . . . فالحبوبي كالبحتري تماماً يوائم بين لفظة
ولفظة ولا يدخل حرم الشعر لفظة غريبة اللهم إلا في ندرة تقرب من المحال وسيجىء
الكلام في هذا بعد . . .

وكما تخرج شاعرنا على اساتيد في دولة البيان كذلك هو الآخر خرج لنا أئمة
في هذا الباب ولا أشك مطلقاً في ان شاعر الحب والجمال اعني بشارة الخوري
تخرج على مدرسة الحبوبي في الخفة والظرف والعذوبة وكلما قرأت للحبوبي داليتة

التي أولها :

لك قامة تدعى بصعده وسهام لحظك ما أحده !
والتي يقول فيها :

هل غير خدك جمرة تقد الجوانح وهي ورده
فانظر الى قمر الدجى سيربك طلعتة وجعده
تراءى امام عيني الاخطل الصغير ينشد :

رضيتُ وقد ذهب الجفا وكذا الهوى لين وشده (١)
أوكلما استنشدت الحبوبي خريدته :

يا حامل الوردة ما الطفك ! فهل ترى لي اليوم ان ارشفك ؟
وقف ازائي الاخطل الصغير يتحفني بروائعه . . .

ولك ان تذكر بعد هذا ان الحبوبي وإن كان بحري الديباجة في الرقة والانسجام
والعذوبة إلا أنه دونه في براعة الفن وروعة الوشي وسرواة البديع ولاعجب فابو
عبادة في هذا فرد لم يسبقه الى ذلك متقدم ولم يلحق بشأوه متأخر ، اللهم إلا إذا
استثنينا من المتقدمين العباس بن الاحنف في روعة مقابلاته ومطابقاته واحمد شوقي
من المتأخرين في سحر الموسيقى وطلاوة الاسلوب ولا يخلو شعر الحبوبي من عناية
باللفظ واحتفاء بمحسناته فقد تلحظ في شعره الطباق المستملح او المقابلة الطريفة .

يحيي الوافدين نذاك غيثاً فيحيي مُمَحِلّاً ويُميتُ محلاً
أو

أجرتُ سحاب دموعك الدمن فاليوم سرك في الهوى علن
أو ربما تهباً له الجناس الموفق الجميل .

(١) ديوان الاخطل الصغير بشارة الخوري : ٥٦

للراح في راحتنا اكؤس كأنها ياسعد تيجسان
 أما تقسيماته فحدث عنها ولا حرج تذكرنا تارة بتقسيمات العباس بن الاحنف
 التي قيل فيها « انها احسن من تقسيمات اقليدس » ونحن بدورنا نقول في الحبوبي
 ما قيل في العباس من قبل ، وتذكرنا اخرى بتقسيمات البحري لما فيها من براعة
 في الهندسة وجمال في الايقاع (١) . . . بل ربما اجتمع للشاعر فنان من فنون
 البديع في بيت واحد كأن تقرأ له التورية والمقابلة معاً في بيت واحد :

ومن شقوتي ان يحكم البين بيننا وياشد ما أشقى الزمان سعيدا
 وقد يحلو له أن يرد العجز على الصدر كأن يقول :
 ظعنوا أهيل محجر سحراً سحراً أهيل محجر ظعنوا
 ولعل اشد ما يبهرننا في شعره روعة تشابهه وانت تعلم ان الشاعر الوصافة أول
 أدوات التشبيه لأن براعة المصور تقتضي ذلك :

في مروج كمروج الذهب
 والثريا مثل كف بضّة

روعة
 التشابه

او كعنفود بدا من فضة
 وسهيل خلد خود غصته

(١) يقول الحبوبي :

فبرق يشب ، وعيس تخشب ، وريش تهب ، وطيب يفوح
 ويقول :

خداك من ورد ، ومن نرجس عيناك ، والقامة من بسان
 وتقول :

فالصدغ من آس ، ومن نرجس عيناك ، والخدان من جلتار
 اقول : أو ليس هذا النفس بنفس البحري ؟

فانت ترى كيف استلهم الشاعر صوره ، إن الطبيعة بسحرها وروعها تتراءى
في مرآة الشاعر امرأة حسناء فالطبيعة في عينيه الحسناء أو الحسناء في عينيه الطبيعية
كلاهما واحد لا يتجزأ :

عارض الشمس جبيننا بجبين

لنرى ايكما اسنى سنى

واسب في عطفك عطف الياسمين

وانثن غصناً إذا الغصن اثثنى

إذن من هنا جاءت براعته في وصف الطبيعة فهو يرى في كل جزء من أجزائها
ظلاً من ظلال المحبوب فشاعرنا يعشق الجمال المطلق جمال الوجود سواء اكان
في ذات بعينها أم في العالم كله وهذه ظاهرة يقوم عليها شعر الرومانسيين اطلاقاً
وما شعر لامارتين عنا ببعيد فانت إذ تقرأ لامارتين في تأملاته Les Méditations
تراه .منصرفاً الى موضوعات ثلاث لا يكاد يحيد عنها : الله والطبيعة والنفس والامر
كذلك لدى الحبوبي واسماعيل صبري وسواهما من الرومانسيين المحدثين .

ومادمننا في معرض الكلام عن الوصف فلا يفوتنا إذن ان نشير الى ان الحبوبي
ممن وصف الحمرة وبرع في وصفها وان ذلك لايعني انه ممن ذاقها أو صاحبها
وخمرته دون ادنى ريب رمزية هي وخمرة ابن الفارض سيان : الحمرة الالهية سكر
بها الشاعر وفي غيبوبته استوحى معاني الوجود واستجلى اسراره مستشفاً الحجب
ليجلوها من بعد بريشته الملهمة . . .

خمرة عتقها الدن سنين فأقامت وهي لاتبغي حِوَلْ
ادركت عهد الملوك الأولين ورأتهم دولاً بعد دولْ

فهي في بطن الحوافيت جنين وهي تروي سير الفرس الأول
 أبداً تجلى ويجلى القمر فيرى ثم لها سير أنيق
 طاب في ظل حشاها السمر إذ بدت تحسبها نار الفريق
 وإذا الركب رأوها أبصروا واضح النهج وقد ضلّوا الطريق
 هاتها تشرق في اكوابها صبغت ثوب الدجى لون الصباح
 علّ نفسي من ضنى أوصابها تجد البرء ويبروها ارتياح
 وانعتها ويك في ألقابها فهي رّوح وهي رّوح وهي راح
 واخوانيات الشاعر عندنا تحتل المرتبة الثالثة في شعر الرجل بعد الغزل والوصف
 ونحن نضمّن اخوانياته ومدائح وتهانيه ومراثيه . . . لأنّ الحبوبي يمتن عرفنا
 شاعراً لا يصطنعه الشعر إنما هو يصطنع الشعر ترجمان قلب ورسائل وجدان وديوانه
 حافل بروائع اخوانياته بين موشح وقريض وهو محسن في هذا الباب احساناً لا مجال
 للشك فيه لأنه يغرف من نبع قلبه ويسقي من ذوب وجدانه أو ليس الحبوبي
 هو الذي يخاطب أحد اخوانه بمثل هذا ؟

واني قد قرضت الشعر حباً لذكرك لا لأن أدعى أديباً
 ولك ان تقرأ قصيدته التي اولها :

منح الصباية اضلعاً وفؤادا . . .

والتي يحن فيها ارق الحنين لوطنه العراق . . .

ياربع لذاتي ومربع جبرني روى معاهدك الغمام وجادا
 لا أبتغي للوصل فيك نهاية أبداً ولا للعيش فيك نفادا
 لا والذي سمك السموات العلى واقامهن وما اقام عمادا
 لا أرتضي غير الاكارم معشراً كلا ولا غير العراق بلادا

كلا ولا انشي لغير المصطفى واخيه قافية تروق نشادا
واعله بلغ الغاية في نوبته التي قالها مهنتاً بعض السادة الأشراف :

طرز خديك العذاران تطرزة الورد بريحان
هذه النونية التي يصدرها بغزل عرفاني رفيع يرقى فيه مرتقى المتصوفة :

يالائمي اليوم في حبه مهلاً فما شأنكما شاني !
هاموا هيامي فيك لو أنهم قد عرفوا معنك عرفاني

روحي في روحك ممزوجة وربما تمزج روحان (١)
حتى كأني منك في وحدة لو صح ان يتحد اثنان

أهواهم لم اهو إلا هم هوى تلاشى فيه جثمانى !
والتي يقول فيها :

زفت اليه خير مزفوفة للطهر ينميها الكريمان
اهي زليخا يوسف لا ولا ويحك بلقيس سليمان
لا بل سليل الوحي زفت الى أربعه سورة قرآن

والتي يقول فيها :

أخف من طبع الصبا طبعه وحلمه أخشب ثيلان
لاتك محتجاً على فضله ما احتاجت الشمس لبرهان
والحبوبي يندى رقة في اخوانياته حتى لكأنك منها امام عاشق يتذلل لمعشوق
وهو بمواجهه هذه يذكرنا باستاذة الشريف الرضي فقد كان هو الآخر يكتب
لإخوانه ومابه إلا انه ينسب بهم ويكشف لهم ولنا عن مثل مواجد العشاق . . . !

(١) جاء في مروج الذهب ٣ : ٣٧٢ - ٣٧٣ في تحليل ما هية العشق :
« فقال بقراط : هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بما مثله عسر تخليصه لحيلة من الاحتيال
والنفس الطف من الماء وأرق مسلماً فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي ولا تخلقه الدهور . . . »
الثابت ان الحبوبي ينظر الى هذه العلة التي اوردها بقراط في بيته هذا .

يقول الحبوبي :

يامن أبحت له الفؤاد هوى وحجبتة عن غيره منعا
واذا نظرتُ وجدته نظراً واذا سمعت وجدته سمعا
ما أرجحتك (١) الراسيات حجي يامن يخفّ على الصبا طبعاً
لاني اتخذت هواكم حسباً أعزى اليه وحبكم شرعاً
حسبي من الدنيا هواك وما نولت إن ضرّاً وإن نفعا
واليك ما وشت اليك يدي مالم يصنع مثله صنعا
بأنامل لم تقض حقكم ولو انني اعلقتها شمعا (٢)
ولك أن تقرأ من بعد قوله :

رسالة شوق قد فضضت ختامها وجدت بها للدهر عقداً مفصلاً
فقبلت منها أحرفاً فحسبتي أقبل من كفيك في الطرس أنملاً
وشاهدت معناكم به ولربما بدا المرء في آياته وتمثلاً (٣)
واخال لك ترى معي ان الشاعر بالغ الغاية في هذا الباب ايضاً ذلك لانه يغرف
أبدأ من قلبه اي انه يصدر عن طبعه والطبع غير التطبع والشعر الشعر ماصدر عن
ذات الشاعر وكشف عن عمق اعماقه لالفظاً ينمق أو معنى يرقق ليوضع في قوالب
ويوزن بأوزان اصطلح عليها بالوزن والقافية . . . !

اما مراثيه فلعلي عرضت عليك أعلى ماله فيها اريد النونية الفذة التي رثى بها
الشاعر السيد حيدر الحلبي وأرجو ان تصدقني اذا قلت لك انه لو لم يكن الحبوبي
سواها في هذا المجال لكان حسبه شاهداً على سبقه فيه لأنها عالم قائم بذاتها فقد
هيمت له فيها من اسرار الالهام مالا يتأتى إلا للملهمين من العباقرة وهي وحدها كفلية

(١) لعلها ما راجحتك .

(٢) (٣) ديوان ١٥١ ، ١١٠ .

أن ترفع الشاعر الى مرتبة عالية لافي ميدان الرثاء حسب إنما في مجال الشعر العرفاني
الصوفي اندر مايكون اليوم في عالمنا المغرق في المادية . . . وقد يلتقي الحبوبي والشيخ
محمد رضا الشيباني في هذا المجال لأن نفحات الصوفية في ديوان الشيباني ذائعة
الانفاس . . .

وبعد هذه الالمامة بديوان الحبوبي (١) إخالك تتفق معي في أن الحبوبي شاعر
ظريف نهج نهج الظرفاء واقتفى اثرهم وتهيأت له اسبابهم وان الحبوبي إن هو إلا
حلقة ذهبية في سلسلة الظرفاء التي تبدأ بابن الأحنف وما أراها ستنتهي . . .

والآن بعد ان وضعنا الحبوبي الموضع الذي يستحق وجلونا روائعه ، ألنا بعد
ذلك مانلاحظ به على هذا الشاعر الغنائي الظريف العالي الطبقة الرفيع الشأن ؟
الجواب أن نعم . . . وهذا أمر يصدق على كل شاعر مهما سمت مكانته
وعلت منزلته فابو الطيب المتنبي على جلالة قدره له سقطات وعليه مؤاخذات طالما
اخذ الناس فيها واعطوا من قديم وان ذلك على اي حال لايقدم في رفيع مكانه ولا
يقلل من شأو بيانه .

ونحن في هذه الكلمة نجمل لك مؤاخذاتنا ونثبت لك بعض ملاحظتنا على شعر
الرجل . . . فلغته احياناً قد لا تخلو من الفاظ غير شعرية ما كان لها وبأية صورة
من الصور أن تلج حرم الشعر فضلاً عن حرم غنائي رقيق تشيع فيه الشفافية
والموسيقى والا ماتراك تقول في لفظ « جرثومة » و « جراثيم » أو لفظة « غلاصيم »

(١) اكتفينا في هذه الالمامة بعرض اهم اغراض الشاعر إلا ان هناك بعض الاغراض الخاصة بما كان
شاعراً في عصر الحبوبي كأن تقرا في الديوان وصف النارجيلة ٣٠٨ واقداح الشاي ٣٠٩
ولك ان تعلم ان اغراضاً مثل هذه طارئة في ديوان الحبوبي وليست أصيلة .

و « سلايم » و « اقاليم » (١) اقول ماتراك قائلاً في الفاظ مثل هذه تفتح على
الحبوبي حرم شعره وتفسد عليه اجواءه السمفونية الهامسة ؟ وما تراك قائلاً في مثل
هذه التعابير ؟

واغتتم ياسعد من هذي الفرص في ربوع عمها البشر وخصّ (٢)
كما اننا نلاحظ عليه استعمال الغريب في شعره كأن تقرأ له في بعض أوصافه
مثل هذه الالفاظ :

علنداة ، ذعلبا ، ختماء ، مخبسة (٣)

ثم قد لا يخلو هذا الشعر من عثرات نحوية كأن تقرأ :

ياحبذا تلك الليالي التي مرت وإن كانت ليالٍ قصار (٤)

أو أن تقرأ :

وانظم الشهب قواف (٥)

إذا خفّ القوام به نهوضاً تقول له روادفه تأنّى (٦)

كما لا يخلو هذا الشعر من عثرات لغوية

وسهام لحظك ما أحده ! (٧)

أو ربما بدا لك هذا الشعر ضعيف التراكيب مهلهل النسيج

آه من ذي قوة قد ضعفا بالهوى ليت الهوى لم يخلق (٨)

وقد لا يخلو هذا الشعر من حشو مغل . .

وبلا ذنب — بدا — تقطعه (٩)

تلك التي تركت جسمي بها مرضاً وحرّضت — كي تذيب القلب — اشواق (١٠)

وانت ترى الى ذلك ان الحبوبي ربما كرر بعض معانيه وامعن في التكرار واعاد

(١) - (٤) ديوان الحبوبي ١٠٠ - ١٠١ ، ٦٩ ، ١٤٧ ، ٢٥٩ .

(٥) - (١٠) ديوان ٥٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ١١١ ، ٥٢٠ ، ٢٥٩ .

الصور وامعن في إعادتها كأن تراه لايني أبداً يردد أوصاف معشوقته عينها فانت
منها لاتزال بين قسي الحواجب وليل الشعر ووضح الجبين والى ماهناك . .
وهو كذلك يكرر صور ممدوحيه فممدوحه أبداً :

أخف طبعاً من نسيم الصبا لكنه هضبة رضوى وقار
وقد تغلب عليه التلقائية فتبدو معانيه ساذجة عليها طابع الثرية وهذا مزلق
طالما انحدر اليه شعراء السهل الممتنع . . !

أفرح إن يدنو أهيل الحمى وإن نأوا كابدت احزاني (١)
وإغراقه في التلقائية تقابله من جهة أخرى غلبة الافتعال على بعض شعره إن
في لفظه وإن في معناه فانت قد تقرأ له الطباق المصطنع غير الموفق .

خائفة الحلي إذا تأودت لكنها آمنة المطارف (٢)
أسروا قلبي وأجروا مدمعي فانا اشكو اسيرا وطلقا (٣)
أو الجناس المتعمل المستقل :

فمن دمي قد ارتوت حتى روت للناظرين من دمي عندهما (٤)
فهو في غزل كمعنى الغزل (٥)
وهو يرتج نقا تحت قنا (٦)

وربما نلاحظ على بعض قوافيه الحمد أو النبوة كأن نقرأ له :

اهل الصحارى والمدن . . .

أو دهشة المندھش

البرغش

اخفش

(١) - (٦) : ديوان ١٢٤ ، ١٦٣ ، ٢٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ .

اغطش

تختش

ولك ان تقرأ الموشحة (ص ٨١) لتبين بنفسك مدى هذا القول من الصحة وربما قرأت له بعض قصائد لاقيمة لها تشكو من ضعف أو قلة انفعال والعمل باد عليها في روحها وهيكلها جميعاً .

ولك ان تقرأ مثلاً ابياته في العتاب على الصفحة ١٦١ من ديوانه أو القصيدة ص ٢٩١ والاخرى على ص ١٤٤ اذ هي وسابقتها خلو من العاطفة عامرة بالعمل .

والتفاوت بين في هذا الديوان فراه تارة يعلو علويبلغ الغاية واخرى ينحدر انحدارا يوازي ارتفاعه . . . وبكلمة اخرى انك واجد الدر في الديوان الى جوار الصدف . . . ومن يدري ! فلعلنا نقرأ في هذا الشعر بعض بواكير الشاعر التي كان ينبغي لها ان تحتل ليسلم منها الديوان . . .

ولك ان تقرأ مثلاً شينيته على ص ٣٠٥ فهي دون شعره قطعاً ولعلها بعض هذه البواكير التي نحن بصدددها . . . ولك من بعد ان تقرأ قصيدته على الصفحتين ١٤٤ و ١٤٥ وتوازن بينهما لترى ان البون بعيد بعيد بينهما فالاولى في الخفيض والثانية في القمة . . . ثم لك ان تقرأ الاخرى على ص ١٥٣ فهي قطعاً من اوائل قوله والاخرى على الصفحة ١٥٤ اذ هما حذقة وتعمل في اللفظ والمعنى معاً والابتدال باد عليهما والنثرية طاغية فيها بافصح صورها . . . !

ثم قد لا يخلو هذا الديوان من ابيات مختلفة الوزن

أما الخطأ المطبعي فحدث عنه ولا حرج !

حَسَدَ يَرْنُوكَ بِالطَّرَفِ الْحَقِّ

والصواب يرموك وهو بعد خطأ نحوي لان الصواب يرمونك (١)
ومن الإخطاء الفاضحة :

تريك الصبح غرتها انبلاجاً اذا ما الليل طرنها اطللا
والصواب اذا ما ليل طُرَّتْها (٢)

وامثال هذا كثير بوسعك ان تتبينه بنفسك وانت تتصفح الديوان !
هذا بعض ما عَن فيه لنا في وقفتنا من الحبوبي شاعراً غنائياً عالي الطبقة . . .
وما اجدر ديوان الحبوبي بطبعة علمية تليق بمكان الرجل وتكون له اكرم
تمحية في دنيا الخالدين . . .

* * *

عاتكة الخزرجي